جمالية المكان في قصيدة رب الأيائل يا أبي ربها لمحمود درويش

The beauty of the place in the poem of the Lord of the Elk, Father of Her Lord, to Mahmoud Darwish

د / حمايد طيب*

جامعة الجيلالي اليابس (الجزائر)، taybhemaid@gmail.com

تاريخ الاستلام: 2021/10/19 تاريخ القبول: 2021/10/25 تاريخ النشر: 2021/10/30

ملخص:

يتناول هذا البحث جماليات المكان في قصيدة رب الأيائل يا أبي ربها لمحمود درويش ، وهذا من خلال الغوص في شعرية عناصر المكان وأنماطه ، فالشاعر يحمل قضية وطنية انعكست على ثراء رصيده الفني واللغوي باعتبار الأثر المعنوي الذي تضفيه القصائد الشعرية لكونها سلاحا لنقل التجربة والمعاناة التي يتخبط فيها الإنسان الفلسطيني .

المكان لبنة أساس في هندسة أبيات محمود درويش وهذا ما لمسناه في هذه الدراسة ، حيث خص عناصر الطبيعة بتجسيد فني من خلال رصد العلاقات بينها وبين الذات البشرية .

كما انتقى الشاعر أنماط المكان التاريخي والديني بعناية وفق قالب جمالي ، كما خص المدينة بطابع حسي عكس موقفه الثابت اتجاه قضيته ، كما أنه لم يلغ حضور البيت باعتباره النواة الأساس في هندسة أطر المكان ، وما زاد اللغة جمالية أثر المنفى في انتفاضته الشعرية التي تجسدت في الوطن الأم..

كلمات مفتاحية: الجمالية ، المكان ، الشعرية ، الأرض ، البيت ، الوطن .

Abstract:

This research deals with the aesthetics of the place in the poem of the Lord of the Elk, Father of the Elk, to Mahmoud Darwish, and this is through diving into the poetry of the elements of the place and its patterns, the poet carries a national issue that reflected on the richness of his artistic and linguistic balance, considering the moral impact that poetry gives to it as a weapon to convey the

* المؤلف المرسل

experience and suffering that the Palestinian human being is experiencing. The place is a building block in the geometry of the verses of Mahmoud Darwish and this is what we saw in this study, where he singled out the elements of nature for artistic embodiment by monitoring the relationships between them and the human self. The poet also carefully selected the patterns of the historical and religious place according to an aesthetic template, as he singled out the city in a sensory character that reflected his firm position towards his cause, nor did he cancel the presence of the house as the main nucleus in the geometry of the frameworks of the place, and the aesthetic language increased the impact of exile in his poetic uprising embodied in the motherland

Key words : aesthetic, place , noodles, earth, house, home .

1. مقدمة:

المكان حركة مفصلية في هندسة قصائد محمود درويش ، ، حيث تعالج هذه القصيدة قضية شائكة محورية لازمت محمود درويش في أغلب قصائده ، فالمكان عنصر جوهري وحلقة إبداعية تجسد العلاقة القدسية بين الشاعر ومختلف أنماط المكان ، حيث نجد الشاعر يعدد في أشكال المكان ، إلا أنه يبقى الركيزة الدلالية وفق النهج المتبع قصد تحقيق الغايات المرجوة ، ومنه تتضح الاشكالية : ما هي الملامح الجمالية لعناصر المكان في محمود درويش ؟ وما هي دلالتها من منظورها الفني ؟ ، حيث تهدف هذه الدراسة لكشف شعرية اللغة من جوانبها التصويرية خاصة لكونها مرتكزة على تشكلات المكان الفلسطيني والصراع القائم على إعادة بناء هندسته ولو من زاوية شعرية أدبية .

أنماط المكان في قصيدة ربِّ الأيائل يا أبي ربها :

ومن خلا قراءتنا لقصيدة رب الأيائل ربها لمحمود درويش ، حاولنا تصنيف المكان وأنماطه وفق العناصر التالية:

1 – عناصر الطبيعة :

اكتسحت عناصر الطبيعة قصيدة ربّ الأيائل يا أبي ربها ، وهذا ما يعكس تفاعل الشاعر مع هذه العناصر حيث جعلها نسيجا فنيا ورسالة مشفرة لنقل القضية الوطنية ، فاختلاف هذه الأجزاء واقع يصور شتات المكان المتناثر ، حيث ينتقل بنا محمود درويش إلى أعمق نقطة ممكنة لاستخلاص

جماليات الطبيعة ، إلا أن هذا التصوير يبقى ظرفيا في ظل حالة البؤس التي طالت تجربته من خلال معايشته لجميع أحداثها .

يلجأ الشاعر لتصوير المشاهد وفق الأثر النفسي الذي يلزمه تحديد أنماط المكان ، ف«يعيش لحظة استدعاء عناصر من الطبيعة ، بقصد تحويل الملفوظ إلى رمزي يمنح صورة شعرية يكتمل فيها الطبيعي بالإحساس الذاتي » (أفاية ، 1994 ، ص 79) ، ليفتح آفاقا أوسع للمكان من حيث الهندسة البنائية والشكلية خاصة و أن الشاعر مزاجي كحال الطبيعة .

الطبيعة في قصيدة رب الأيائل يا أبي ربها مرتبطة بالأحداث الملازمة للقضية الفلسطينية ، فهي استئصال لحالة الخوف الملازم للإنسان العربي والفلسطيني على وجه الخصوص ، خاصة وأن علاقة الطبيعة بالإنسان متذبذبة ومتقلبة المزاج ، حيث تتشكل في حلقة الصراع تارة وفي المنظومة الجمالية تارة أخرى ، غير أن الواقع المرير رغّم على الشاعر ولوج عالم حزين أثقل كاهل حدود المكان وجعله يراوح أجزائه الجافة كقوله :

مُسْتَسْلِمًا لِخُطَى أَبِيكَ ، ذَهَبْتُ أَبْحَثُ عَنْكَ يَا أَبِي هُنَاكَ
عِنْدَ احْتِرَاقِ أَصَابِعِي بِشُمُوعِ شَوْكِكَ ، عِنْدَمَا
كَانَ الغُرُوبُ يُقْصِي الغُرُوبَ ، وَعِنْدَمَا
كَانَ . أَنَا وَأَبُوكَ . ، يَا أَبَتِي وَرَاءَكَ وَالِدَيْكَ
أَنْتَ المُعَلَقُ فَوْقَ صَبَارِ البَرَارِي مِنْ يَدَيْكَ
وَعَلَيْكَ صَقْرٌ مِنْ مَخَاوِفِنا عَلَيْكَ (درويش ، 2005 ، ص 793)

يصور محمود درويش في هذه الأبيات حدود الموت التي شكلها من عناصر الطبيعة من خلال جمالية الوصف العميق التي طغت على هذه المقطوعة ، المتتبع لهذه الأبيات ينصهر في المشهد الفني ، الذي نظر لحالة الموت في هذه الأبيات ، فألفاظ الشوك صبار البراري ، والصقر في إشارة عميقة تجسد الواقع الحتمي الذي آل إليه المواطن الفلسطيني ، فهذه العبارات رمز للقساوة والمعاناة التي تمحورت حول الواقع المرير .

محمود درويش يجسد صورة ما قبل الموت الحتمي ، كونه حلقة ظرفية ليس إلا ، إلا أن الموت تجسد في صورة العقاب الذي تعدى صورة الموت من حيث الأثر النفسي العميق ، والشاعر يصور الأب وهو معلق من يديه فوق صبار البراري ، و فوقه ذلك الصقر الذي ينتظر موته ، حيث نقل هذه الأبيات

في المشهد المأساوي في صورة حركية تفاعلية جعلت من القارئ يعايش هذا الحدث وينغمس في مدى انعكاساته على حالته النفسية .

كما جعل محمود درويش من عناصر الطبيعة رمزا أصيلا للانتماء و إثبات الهوية الضائعة ، حيث حاول تجاوز النظرة التشاؤمية والجو الحزين من خلال انتقاله لزرع الأمل ومحاولة إحياء المكان الميت عن طريق الكفاح من أجل احتوائه كقوله :

بِقُلُوبِ سَجَانَيْكَ ، وَاصْمُدْ فَوْقَ شَوْكِكَ ، حِيْنَ يَقْهَرُكَ الصَهِيلُ
حَوْلَ الجِهَاتِ السِتِ ، وَاصْمُدْ فَالسُهُول لَكَ بِالسُهُولِ
وَأَبِي خَجُولٌ يَا أَبِي مَاذَا يَقُولُ
حَدِثْهُ عَنْهُ ، فَأَوْمَاَ لِلشِتَاءِ وَدَسَ شَيْئًا فِي الرَمَادِ (درويش ، 2005 ، ص 794) .

و شعرية هذه الأبيات تعكس تجانس عناصر الطبيعة التي غاصت بالمتلقي في البنى العميقة التي نظرت لإحياء المكان ، حيث كرر محمود درويش السهول مرتين في هذه المقطوعة الشعرية ، عكست توجهه الفكري وكشفت شعاره الحقيقي المتمحور حول الأرض ، فالسهول هي الأرض المغصوبة والتي فقدت أبرز حدودها الشكلية ، إلا أنها بقيت مغروسة في نفس الشاعر الذي جعل منها بعدا روحيا ثابتا لا يمكن الفصل في خباياه .

كما ربط محمود درويش انتماء السهول بالصمود ، حيث جعل من فعل الأمر اصمد مفتاحا لإعادة شحن الهمم الضائعة ورفع نسق الانتفاضة ، خاصة وأن الشعب الفلسطيني أصبح جزءا لا يتجزأ من تركيبة أرضه سواء من حيث الانتماء وإثبات الهوية الوطنية ، أو من حيث نقل القضية الفلسطينية خارج أسوارها وإعادة الهيبة للأرض المحتلة التي لازالت تشكل الصراع الأزلي مع الكيان الصهيوني .

كما قام الشاعر بإحداث ثنائية بين المكان والزمان وجعله يساير تلك المتغيرات فينسج مضامين عناصر الطبيعة كفاعل بارز في تشكيل هذا النمط من المكان في كتلة لغوية تنساق وفق أبعاد الشاعر المتقلبة المزاج كقوله :

أَبِي وَمَتَى تَمُوتُ ، فلاَ يُجِيبُ ، هُوَ الخَجُولُ
وَالوَقْتُ مُلْكُ يَدَيْهِ يُرْسِلُهُ إِلَى الوَادِي وَيُرْجِعُهُ إِلَيْهِ
وَهُوَ الحَدِيقَةُ فِي مَهَابَتِهَا البَسِيطَةُ ، لاَ يُحَدِثُنِي عَنِ التَارِيخِ فِي
أَيَامِهِ ، كُنَا هُنَا ، قَبْلَ الزَمَنِ وَهَهُنَا نَبْقَى فَتَخْضَر الحُقُولُ (درويش ، 2005 ، ص 795)

لقد جعل محمود درويش من عناصر المكان امتداد زمنيا يسرد لأحداث أليمة ، جعلت من الشاعر ينقب عن عناصر الطبيعة لتشكل هذا الجسر التواصلي ، ويؤلف بين هذه الحركة التفاعلية التي تندرج ضمن نطاق العلاقة التكاملية بين المكان والزمان ، لذلك فالشاعر يسأل عن زمن الموت الذي حاول تحديد جوانبه من خلال البحث في ثنايا الوادي حيث لم يستطع إدراكه ، مما جعل الحديقة تمتثل لهذه الصورة من خلال النظرة التاريخية لتحديد هذه المعالم والأطر .

غير أن الشاعر جعل من الحقول الخضراء رمزا للحياة التي حاولت طمس عيوب الموت المتربص بالإنسان الفلسطيني ، فاللون الأخضر إشارة على بوادر الحياة التي غادرت قاموس الفلسطينين كواقع خال من التجسيد ، ومنه فإن براعة الشاعر من خلال ممازجة المكان بالزمان وإدماج عناصر الطبيعة التي انتقاها بعناية ، مما أدى بالقارئ إلى البحث في هذا التصوير الجمالي ، حيث لعبت اللغة دورا هاما في نسج هذه المعالم ، و رفعت نسق الحوار حول ثنائية الموت والحياة من خلال تماثل عناصر الطبيعة وفق طرح الشاعر لقضيته .

الطبيعة جزء ثابت من قيم محمود درويش ، حيث رفع من مدى تفاعلها مع أجزائها ، فانتقت أبرز الخصائص الفنية منها ليحولها لشعار أصيل يبلور القضية الفلسطينية التي لم تفصل أي جزء من أجزاء تركيبة المكان ، حتى وإن كانت هذه التركيبة غير ثابتة ، إلا أن التشكيل الفني للطبيعة خصص حيزا و فضاء رحبا لنقل هذه التجربة كقوله :

أَعْدُو وَرَاءَ الطَيْرِ كَيْ أَتَعَلَمَ الطَيَرَانَ ، قَدْ خَبَأْتُ سِرِي
فِي مَا يَقُولُ الأَوَلُونَ هُنَاكَ ، خَلْفَ التَلِ ، كَم أَبْعَدَتْنِي
عَمَا أُحَاوِلُ أَنْ أَكُونَ وَلَاَ أَكُون ..... وَأَنْتَ تَدْرِي .
أَنِي أُرِيدُ فَوَائِدَ الأَزْهَارِ قَبْلَ المِلْحِ ، كَمْ قَرَبْتَنِي
مِنْ نَجْمَةٍ لِعَبث البَعِيدَة (درويش ، 2005 ، ص 795).

تصور هذه الأبيات الأثر النفسي السلبي الذي يكابده محمود درويش ، لذلك فهو ينتقي من عناصر الطبيعة أبرز خصائصها ، حيث جعل من مدرسته التي ينتج من فصولها أركان الحرية ، فالطائر يرمز للحرية، فهو يلامس أرجاء المكان دون قيود ، ليبحر في تجربته وفق هذا المعيار ، غير أن محمود درويش سرعان ما عاد لكبد المعاناة التي لازمته فهو يعود لأمر الواقع ، حيث فصل التل عن العناصر المشكلة للمكان النواة ، فهو يبحث عن ذاته قبل الخوض في هذه العلاقة ، لذلك فإنه خبأ سره وراء التل ، كونها

مسألة تتعلق بالهوية والانتماء ، فالشاعر يشعر بطمس الشخصية العربية الفلسطينية فهو يبني جوهرا بديلا لهذه السياسة المنتهجة حيث يتمكن من الحفاظ على حدود المكان .

المكان مسألة حياة أو موت إنه إصرار وتحدي من أجل كسب هذه القضية وإعادة إحياء وهندسة المكان من جديد ، غير أن الشاعر يشعر بالأسى حيث قال : كم أبعدتني عما أحاول أن أكون أو لا أكون وكأن الأمر ليس بيده ، فهو يحاول إبراء ذمته ، لذلك حاول نقل هذه الرسالة وفق مشاكلة الطبيعة لعناصر المكان التي أحدثت بعدا نفسيا لدى الشاعر .

المغزى الرئيس عند محمود درويش هي الأرض حتى وإن صاغها بألفاظ منافية للمدلول الحسي ، لذلك يحتاج المتلقي لقراءة عميقة حيث يتمكن من إدراك عملية التصوير التي تمخضت في الحركة المحسوسة لعناصر الطبيعة من جهة وتفاعل الشاعر لكونه المشكل لحدود المكان ونواته من جهة أخرى ، حيث قال : وأنت تدري أني أريد فوائد الأزهار ، فالبيت في ظاهره يصور الأزهار في حقلها الطبيعي ، إلا أنها تشكل الجوهر العام لأطر المكان ، لذلك فإن لشاعر يحاكي صور الأزهار لما تعتريه من خصائص وميزات كجمالية المنظر والأرض التي استلهمت هذه الخصائص الفنية لها .

إذن فللشاعر حس ذوقي انساق وفق معايير الطبيعة الفنية والعلاقة القدسية التي ربطته بأرضه ، حيث أعاد شحن هذه العملية التواصلية من جديد ، ونقلها في أبهى حلة من خلال المشهد المرسوم الذي تفننت اللغة في نسجه ، حيث جعلت القارئ يعايش التجربة ويلامس حدود المكان فيتفاعل مع أبرز الخصائص الطبيعية والجمالية .

وتنجذب مكونات الطبيعة في اللغة الشعرية لتشكل دلالة ملغومة أثقلت كاهل المتلقي الذي ضاع في متاهة البنية السطحية ، كون أغلب ألفاظ الشاعر رسخت لبناء أفكاره التي أسست لمنهجية القضية الفلسطينية، فرغم تعدد هذه العناصر إلا أن الهدف واحد كقوله :

قُلْ لِي ، أُحِبُكَ قَبْلَ أَنْ تَغْفُو ..... فَيَنْهَمِرَ المطَرُ
مُتَدَاخِلاً فِي صُفُوفِهِ البُنِي مُتَكِئًا عَلَى دَرَجِ الشَجَرِ
يَرْنُو إِلَى فِرْدَوْسِهِ المِفْقُودِ ، خَلْفَ يَدَيْهِ ، يَرْمِي ظِلَهُ
فَوْقَ التُرَابِ ، تُرَابُهُ وَيَشُدُهُ ، يَصْطَادُ زَهْرَةَ أُقْحُوَانِ
بِعَبَاءِ الظِلِ المرَاوِغ أَي صَيَادٍ يُغَافِلُ سَارِقَ الأَشْجَارِ
أَيْ أَيْ أَبِي ، يَرْمِي النِبَالَ الظِلَ نَحْوَ تُرَابِهِ

المِسْرُوقَ يَخْطِفُ مِنْهُ زَهْرَةَ الأُقْحُوَانِ (درويش ، 2005 ، 798)

هذه الأبيات حافلة بعناصر المكان ، حيث لجأ الشاعر لتكثيف هذه العناصر من أجل نقل الصورة الواقعية في قالب مليء بالرموز ، حيث وظف محمود درويش المطر باعتباره رمزا من رموز الحب والرومنسية ليجسد تلك العلاقة بينه وبين الحدود ، كما صاغ عبارات أخرى ، الشجر ، الظل ، التراب ، زهرة الأقحوان ، ليشكل أطر المكان المنفجر الذي فقد أبرز معالمه .

لقد حملت عناصر الطبيعة كتلة من الرموز عكست علاقتها بالذات البشرية ، حيث بصم محمود درويش على هذه المعايير الفنية ومدى فاعليتها كأثر جوهري ومرجعي لتشكيل حدود المكان ، فالصخر والحجر والشجر ..... رموز للحياة التي فقدها المكان الواقعي المعيش ، حيث لجأ الشاعر لاستثمار لغته الشعرية التي قننت هذه العناصر باعتبارها رمزا من رموز الأرض كمنطلق محوري ومفصلي في رصد المعالم رغم تلون أشكالها وألوانها ، إلا أن الغاية واحدة ووحيدة .

2 – الأرض :

تعد عناصر الأرض كنمط مكاني بيت القصيد حيث لجأ للتنويع في الأسلوب لنقل المشروع الفلسطيني الذي دعا إلى استقلالية حدوده ، غير أن الشاعر محمود درويش لم يجد من حيلة سوى اللغة التي حولها لأداة فاعلة في نقل تجربته الشعرية ، حيث صارت اللغة أرضه المؤقتة ، في انتظار أن تعود الأرض إلى لغتها ، وهذا ما جعل الشاعر يضع الأرض كعنوان في أغب قصائده :

..... أُرِيدُ أَنْ أَهَبَ البِلاَدَ
غَزَالَةً فَاشْرَحْ بِدَايَتَكَ البَعِيدَةَ كَيْ أَرَاكَ كَمَا أَرَاكَ
أَبَا يُعَلِمُنِي كِتَابَ الأَرْضِ مِنْ أَلِفٍ إِلَى يَاءٍ كَمَا أَرَاكَ
لُغْزٌ هُوَ المِيْلاَدُ وَيَنْبُتُ مِثْلَ البَلُوطِ يَشُقُ الصَخْرَةَ
عَتَبَاتُ هَذَا المِشْهَدِ العَارِي وَيَصْعَدُ ..... ثُمَ يَكْسِرُهُ السَوَادُ (درويش ، 2005 ، ص794).

امتزجت عناصر الطبيعة بالأرض في مشهد يلخص العلاقة الازدواجية بين الشاعر وأرضه ، حيث أحدث تصورا محاكيا لحياة الإنسان عند الولادة ، فالشاعر تعلم حدود أرضه من الألف إلى الياء ، لقد استحوذ على أهم خصائصها وانصهر في أرجائها وأطرها ، حيث شبه الشاعر نفسه بالبذرة التي تغرس فتشق الصخر لصلابتها ، وينبت لتشكل جوهرا رئيسا للأرض .

شعرية هذه الأبيات تختزل الصراع المرير الذي لازم الشاعر وأرهق كاهله من خلال هذه الرموز الفنية التي أحدثت ثنائية بين الإنسان والبذرة من جهة والأرض من جهة أخرى ، كعلاقة ثنائية تنظر لبعث التجربة الشعرية والشعورية على حد السواء ، فهو يغوص في الخصائص المفقودة التي فصلت الأرض عن الشعب الفلسطيني ، وجعلت العلاقة روحية ، و ألغت الجانب الحسي الملموس للمكان وهو ما جعل الشاعر يسبح في الخيال لإعادة إحياء هذه الأواصر .

لقد عصفت هذه الأبيات بعملية الإدراك وتحديد الدلالات من خلال انتقاء الرموز التي احتكرت الساحة الشعرية وتفنن في نقل الرسالة في أبهى صورها ، حيث حاول الشاعر إثبات الانتماء والهوية من خلال عملية الغرس كأداة فعلية حسية وتأصيل الذات البشرية كبذرة انتماء من جهة أخرى ، حيث جعل هذا التصوير أثر الأرض كرمز عميق ارتقى باللغة الشعرية إلى دعائمها الثابتة ، فكانت اللغة لغة الأرض والوطن ، خاصة وأن الشاعر يحاول دائما إحياء النفوس الميتة والمحتضرة وقد أجادها بكتلة الرموز المقنعة .

شخصية الشاعر بارزة من حيث الأثر اللغوي الذي هيمنت عليه صور المكان حيث «استطاع محمود درويش بقصائده أن يمتلك حريته ، وأن يضمن جرأته ، وأن يحافظ على نقائه .... ؛ لأنه اتخذ لنفسه موقعا إنسانيا راسخا وانطلق من هذا الموقع الذي استند إليه »(ياغي ، 1998 ، ص 106) ، لبعث تجربته الشعرية والتي لازمت حدود الأرض من حيث المنطلق والتأسيس .

لقد تعددت صور الأرض في قصيدة رب الأيائل ربها التي كانت الشغل الشاغل لمحمود درويش ، كونها قضية وطنية يشترك فيها المواطن الفلسطيني ، كما تلونت أنماط الأرض من حيث الرؤى الشكلية بين الإيجاب تارة والسلب تارة أخرى ، وهذا حسب مزاج الشاعر الذي ركز على الأصالة من حيث الانتماء كقوله :

أَرْضٌ مِنَ النَعْنَاعِ تَحْتَ قَصَائِدِي ، تَدْنُو وَتَنْأَى ثُمَ تَدْنُو
ثُمَ تَنْأَى فِي اسْمِ فَاتِحَها ، وَتَدْنُو فِي اسْمِ فَاتِحِهَا الجَدِيدِ
كُرَةٌ تَخَاطَفَهَا الغُزَاةُ وَتَبْتَدُهَا فَوْقَ أَطْلَالِ المَعَابِدِ وَالجُنُودِ
لَوْ كُنْتَ مِنْ حَجَرٍ فَكَانَ الطَقْسُ آخَرَ ، يَا بْنَ كَنْعَان القَدِيمَ
لَكِنَهُمْ كَتَبُوا عَلَيْكَ نَشِيدَهُمْ لِتَكُونَ أَنْتَ هُوَ الوَحِيد (درويش ، 2005 ، ص 797).

والأرض من خلال هذه الأبيات متأرجحة بين مد وجزر ، فهي غير ثابتة ، حيث شكلت حدودها كأساس بنائي وتركيبي وتفاعله مع فاتحها ، فهي تدنو تارة وتنأى تارة أخرى ، وهو ما يعكس الواقع المرير الذي خيم على حدود الأرض الهندسية والروحية ، فالأرض حتى وإن أثبت الشاعر أحقيتها ورجح المكيال للقضية الفلسطينية نفسيا إلا أن هذه الأطر بقيت تعاني من سرطان الكيان الصهيوني الذي نهش أغلب عناصرها.

كما برهن محمود درويش على هذا التصوير من خلال مماثلة الأرض للكرة التي تركل في جميع الأنحاء وبشتى الوسائل ، و الأرض تخاطفها الغزاة وهذا ما يبلور مكانة فلسطين من ناحية الموقع من جهة والتاريخ والدين من جهة أخرى ، ففلسطين موطن الديانات السماوية و محور لتاريخ الحضارات مما دفع بالكيان الصهيوني لاقتلاع أبرز مكوناته الشكلية والفنية التي جردت أبرز معالمها .

حالة الأرض المطابقة للكرة مما يبرز لا مركزية كل عنصر منها ، حيث حملت الكرة رمز الأرض غير الثابت والمتنقل في خضم الصراع اللامتناهي بين الشعب الفلسطيني والكيان الصهيوني الذي أحكم قبضته على حدودها الرئيسة .

كما صاغ محمود درويش الأرض في صورة نفي وصراع بين الثبات والنفور ، حيث فتح صراعا نفسيا مع ذاته العميقة التي دائما ما انعكست في لغته الشعرية من خلال التشكيل الفني والشعري للمكان وخوض موضوع موحد وهو الأرض :

يَا أَرْضُ لَمْ أَسْأَلْكِ : هَلْ رَحَلَ المِكَانُ مِنَ المِكَانِ
لِأَكُونَ زَائِرَكِ الغَرِيبَ عَلَى حِرَابِ القَادِمِينَ مِنَ الدُخَانِ
بَيْنِي وَبَيْنَ حُقُولِي الشَقْرَاءَ مِتْرٌ وَاحِدٌ ..... مِتْرٌ مُقَصٌ قَصَ قَلْبِي (درويش ، 2005 ، ص 799).

يستهل محمود درويش هذه الأبيات بأسلوب النداء والتعجب ليستأنف البيت الأول باستفهام جعل المتلقي يصطدم بالسؤال الفلسفي الملغوم حول انتقال المكان من المكان ، وهذا ما أعاد هيكلة الذات النفسية للشاعر التي قهرت جراء هذا التواصل الرهيب بين أبرز خصائص وحدود المكان ، التي جعل منها الشاعر حاجزا يفصل بينه وبين أرضه ، فالمكان هنا متأرجح غير ثابت جعل الشاعر يطرح أكثر من سؤال .

كما فصل محمود درويش في القطيعة بينه وبين الأرض وصور العزلة الأليمة التي لازمت الشاعر وأرقت حياته وجعلته يواجه هذا الصراع المتواتر ، حيث يبدو الشاعر كالغريب النافر لهندسة حدود المكان ، حيث يكتفي بمراقبة الأرض ومشاهدة عناصرها عن بعد ليس إلا ، فهو يفتقد الحس التفاعلي الذي أحدث خللا كبيرا في مقدسية العلاقة بين الشاعر والأرض .

كما أحدث محمود درويش ثنائية بين الأرض والسماء ليكون نطاقا أوسع للمكان ، فالأرض موضوع رئيس اكتسح بالأغلبية جل قصائده ، حيث نجد الشاعر في كل مرة يركز عليها ويبدع في التنظير لأوصافها فيتغنى في نقل المشاهد الواقعية والخيالية لها :

الأَرْضُ تَكْسِرُ قِشْرَ بَيْضَتِهَا وَتَسْبَحُ بَيْنَنَا

خَضْرَاءَ تَحْتَ الغَيْمِ ، تَأْخُذُ مِنْ سَمَاءِ اللَوْنِ زِينَتَهَا

لِتَسْحَرَنَا هِيَ الزَرْقَاءُ وَالخَضْرَاءُ تُولَدُ مِنْ خُرَافَتِهَا

وَمِنْ قُرْبَانِنَا فِي عِيدِ حِنْطَتِهَا ، تُعَلِمُنَا فُنُونَ البَحْثِ عَنْ أُسْطُورَةِ التَكْوِينِ (درويش ، 2005 ، ص 801).

لقد جعل محمود درويش من الأرض بعدا فنيا ونقلة نوعية في نسج الخيال وبعث الصورة الشعرية في بنية تركيبة جمالية ، حيث شبه الأرض بالصبيان التي تكسر قشور البيض ، لتلج الحياة وتزيح الحاجز الفاصل بينهما ، الشاعر مازج هذا التصوير وأعطاه سمة تناظرية انصهرت في المشهد الخيالي الذي لازم هذه الأبيات الشعرية .

الأرض الفلسطينية رهينة التقوقع المفروض من طرف الكيان الصهيوني الذي حد من نطاق الدولة الفلسطينية وحاول طمس معالمها وآثارها بعزلها عن العالم الخارجي ، إلا أن التصوير الفني للشاعر أعاد الروح للأرض التي اكتسبت حلة جديدة واندمجت في عالم الحياة الذي أعلن ميلاد المكان من جديد بإحداث ثنائية بين الأرض والسماء ومزج هذا التناظر لإضفاء ديناميكية فعالة للمكان والذي في كل مرة يحاول محمود درويش شحنه وإعادة بناءه .

كما ارتبط حضور الأرض في هذه الأبيات بعناصر الطبيعة التي استمدت منها أبرز خصائصها الفنية والجمالية ، حيث جعل الشاعر الأرض مشكلة من اللون الأخضر الذي يرمز للحياة والصفاء ولون السماء الأزرق الذي زاد من روعة المنظر ، فشكلت بذلك لوحة فنية سواء من حيث الهندسة الشكلية البنائية ، أو من حيث الأثر النفسي الذي تغلغل في طيات الحالة الشعورية لمحمود درويش ، ومما زاد من

شعرية هذه الأبيات الخيال الواسع للشاعر الذي أسس لمنهجية في بناء أطر المكان ، حيث أضفت الخرافة والأسطورة بعدا جماليا ساهم في كسر النظرة التشاؤمية التي غزت فكر الشاعر وأعلنت ميلاد مكان نفسي من إنتاج محمود درويش .

حمل محمود درويش الأرض صفات عديدة في هذه القصيدة كجدار الكون ، الزوجة الشهية ، المرأة الصغيرة ، وغيرها من الصفات حيث شكلت الأرض وتجسدت في صورة الإنسان ليتفاعل الشاعر مع أبرز حدودها ويستمد من هذه العلاقة تجربة فنية انعكست على أبياته الشعرية ، حيث نجده يغوص إلى أعمق حدود التصوير الفني ليشمل أطر وحدود الأرض :

سَيِدَةٌ عَلَى إِيْوَائِهَا المائِي
سَيِدَةُ المدِيحِ صَغِيرَةٌ لَا عُمْرَ يَخْدِشُهَا وَجْهُهَا لَا ثَوْرٌ
يَحْمِلُهَا عَلَى قَرْنَيْهِ تَحْمِلُ نَفْسَهَا وَتَنَامُ فِي أَحْضَانِهَا
هِيَ ، لَا تُوَدِعُنَا وَلَا تَسْتَقْبِلُ الغُرَبَاءَ ، وَلَا تَتَذَكَرُ المَاضِي
فَلَا مَاضِي لَهَا ، هِيَ ذَاتُهَا وَلِذَاتِهَا وَفِي ذَاتِهَا تَحْيَا فَنَحْيَا
عَيْنٌ تَحْيَا حُرَةً خَضْرَاءَ لَمْ تَرْكَبْ قِطَارًا وَاحِدًا مَعَنَا (درويش ، 2005 ، ص 801)

الشاعر شديد التفاعل مع هذه الأبيات ، فهو يبرز مكانة الأرض الفلسطينية التي وصفت بالسيادة ، فهي سيدة على إيوائها ، سيدة المديح ، لقد نفى الشاعر صفة العبودية وحرر أرضه من خلال هذا التصوير الفني والخيالي الذي أعاد عجلة الصراع بين السيدة والأمة والصراع النفسي الأزلي لهذه العلاقة ، كما ركز محمود درويش على إثبات الأرض ونفي الأسطورة حمل الثور للأرض على قرونه ، الأرض عنده تحمل ذاتها ولذاتها، فهي جوهر خاص متنافي مع تداخل أي طرف في حدودها .

علاقة الشاعر بالمكان قدسية لكونها حلقة بارزة في رصد المعالم البينة والخفية لقريحته ، «فلا وجود لأحداث خارج المكان ، ذلك أن كل حدث يأخذ وجوده في مكان محدد وزمان معين » (بوعزة ، 2010 ، ص 99)، بصفة ملازمة لعملية الإبداع الشعري الذي نقل هذه الصورة وفق هذه الثنائية الثابتة .

كما نجد محمود درويش يختزل مسيرته النضالية في أحقية امتلاك الأرض ، فالتاريخ لا يهمه بقدر ما يركز على الواقع الحالي ، والشعور بحدود الأرض المشتتة طعم خاص يلخص مدى إصرار الشاعر على مواصلة النضال ، حيث على الرغم من التعدد والتلون في أنماط المكان بمختلف مسمياتها ، إلا أن

الموضوع الجوهري والثابت هو الوطن والأرض الذي تولد من خلال فقدان الشاعر لحدود بلاده مما زاد من تأزم الوضع النفسي لديه.

3 – المكان التاريخي الديني :

التاريخ جزء من خلفيات الماضي التي لا يمكن فصلها عن الواقع ، لذلك فإن محمود درويش جعلها تتغمد القصائد الشعرية ، وهذا كمرجعية رسخت لأحداث سابقة بلورها في بنيته التركيبية للمكان ، حيث ربطها بالبعد الديني الذي استمد معالمه من هذه الأحداث فكانت مرجعية رئيسة في عمله الشعري الفني وهذا ما نلمسه في قوله :

كُرَةٌ تَخَاطَفَهَا الغُزَاةُ وَثَبَتُوهَا فَوْقَ أَطْلَالِ المَعَابِدِ وَالجُنُودِ
لَكُنْتُ مِنْ حَجَرٍ لَكَانَ الطَّقْسُ آخَرَ ، يَابْنَ كَنْعَان القَدِيمَ
لَكِنَهُمْ كَتَبُوا عَلَيْكَ نَشِيدَهُمْ لْتَكُونَ أَنْتَ هُوَ الوَحِيد
لَمْ تَأْتِ سَوْسَنَةٌ لِتَشْهَدَ مَرَّةً مَنْ كَانَ شَاعِرُهَا الشَهِيد (درويش ، 2005 ، ص 797)

تظهر أبعاد الأرض كالكرة التي تخاطفها الغزاة ، حيث أضحت معلما تاريخيا ودينيا ، لقد أسفرت هذه النظرة التشاؤمية لفقدان الأرض لأبرز خصائصها التفاعلية ، حيث تمخضت في مشهد أثري جعله محمود درويش كمنطلق تاريخي ينظر البعد الاستراتيجي في تصوير المكان ، فكانت الأرض ملمحا تاريخيا صيغ في أبعاد دينية خصصت فضاء ضيقا لهذه البنى الدلالية .

الأرض في هذه الأبيات الشعرية ، سيرة ذاتية للإنسان الفلسطيني الذي أضحى حلقة فارغة في هذه المرجعية التفاعلية ، فالمشهد الحزين أعاد نسيج الآفاق الجامدة التي لم ترتق بالأبعاد الهندسية والدلالية لحدودها الخاصة ، فكانت مرآة عاكسة للواقع المرير الذي لازم الأثر النفسي للشاعر وجعله يتخبط في إعادة لم شتات أجزاء المكان .

كما أن محمود درويش توغل في الحركة التصويرية التي جعلت من المكان طللا تاريخيا ممزوجا بنكهة دينية ، حيث صهر الأرض في أطلال المعابد والجنود التي ألقت بظلالها الميتة والجامدة وصقلت حدود الأرض رغم قداسة المكان الديني و مرجعية النمط التاريخي ، فالشاعر يؤكد على تلك العزلة والاضطهاد الذي فصل الذات البشرية عن حدود ومعالم المكان القدسي والتاريخي ، فكان عبارة عن ملمح أثري

وأطلال مهجورة تجردت في حضور المواطن الفلسطيني في احتواء هذا الصراع للأزمة اللامتناهية ، لتلقى الحدود نفس مصير الأنماط لتسبح مرة أخرى في الجو الكئيب الذي اعتاد عليه الشاعر .

لقد عكست هذه الأبيات البعد الجمالي للغة الشعرية لمحمود درويش حيث استطاع التوغل في الأبعاد التاريخية والدينية ، وهو بذلك ينقل رسالة معالمها في غاية الخطورة ، فالكيان الصهيوني استحوذ على جل أركان الوطن ، حتى الأمكنة القدسية والتاريخية لم تسلم من هذا الطمس الذي حاول العدو من خلاله اقتلاع هذه الجذور وإخماد الانتفاضة التي شحنت من هذه الأنماط كسند ومرجعية أساس في ميلاد هذه الثورة .

الشاعر حريص على الحفاظ على المعالم الدينية والتاريخية ، لذلك لم يتقبل هذا التجرد الذي طال هذه الحدود ، فكان ينصهر مع هذه المرجعية في كل مرة ، حتى وإن اقتص تفاعله مع هذه الأشكال إلا أنها جزء جوهري للذات الفلسطينية ، فهو منطلق متناغم الدلالات يعصر البعد الديني بالبعد التاريخي ، ليبقى يراوح الصراع المتواتر لحفظ هذا الموروث ، فكان عبارة عن طلل أثري له حكم خاص ودلالة ذاتية لا يدركها إلا المواطن الفلسطيني باعتباره الحلقة البارزة في حدود هذه الأنماط التاريخية والدينية كتوظيفه للقلاع ، تماثيل المعابد ، والفردوس .

4 – المدينة :

المدينة من أكبر التجمعات السكانية التي تعكس في غالب الأحيان ذلك التطور المتسارع سواء كان من حيث البنية الشكلية في البناء العمراني أو الحركة الدءوبة التي تميزها عن غالبية أنماط المكان الأخرى «فالمدينة هي مسكن الإنسان الطبيعي ، وهي المكان الإنساني الأفضل المبني لسعادته شأنها في ذلك شأن كل تجمع بشري كالقرية أو البادية في أول الأمر » (عقاق ، 2001 ، ص 21) فهي تجسد ذلك الصراع القائم بين الإنسان والعصرنة التي حاولت فرض ديناميكية التواصل وإحداث نوع من التوازن في خضم هذا التواتر المتسارع الذي أضحى يصور واقع الإنسان المعيش من مختلف جوانبه النفسية والاجتماعية والسياسية والدينية .

لم تكن المدينة بذلك الحضور القوي الذي شهدته عناصر الطبيعة والأرض ، غير أن محمود درويش جعل منها معيارا توافقيا ونظرة تفاؤلية في بعض الأحيان حاول أن يستمدها من بعض المدن ، لإجراء تنظيري يغرس تلك المكانة البارزة للمدينة في هندسة الحدود الظاهرية للمكان والتفافه حول الحركية الدؤوب لواقعها :

يَتَنَاوَلُ النَعْنَاعَ مِنْ أُمِي ، يُدَخِنُ تَبِغَهُ ، يُحْصِي ثُرَيَات العِنَبِ
وَيَقُولُ لِي : اهْدَأْ فَأَغْفُو فَوْقَ رُكْبَتِهِ عَلَى خَدَرِ التَعَبِ
أَتَذْكُرُ الأَعْشَابَ : يَأْخُذُنِي قَطِيعُ الأُقْحُوَانِ إِلَى حَلَبْ
مِنْ هَهُنَا ، قَطَعَتْ مُخَيِلَتِي جِبَالَ النَايِ ، خَلْفَ النَايِ أَغْدُو
أَغْدُو وَرَاءَ الطَيْرِ كَيْ أَتَعَلَمَ الطَيَرَانَ (درويش ، 2005 ، ص 795)

لقد استعان محمود درويش بمدينة حلب السورية كمرجع وأنموذج من حيث حدود المدينة التي لم تصور تلك الحركية المتواصلة التي ألفتها ، فمدينة حلب في هذه الأبيات حيطت بعناصر الطبيعة التي خلدتها في ثوب جمالي من خلال الصورة الشعرية التي طغت على الوصف ، حيث توغل بالنمط المشهدي فشكل طريقا من زهر الأقحوان لمدينة حلب ، لتنتقل من الجو المأساوي الكئيب للهدوء والسلام الذي تعرفه مدينة حلب ، خاصة وأن الشاعر أحاطها بزهر الأقحوان مما زاد من جمالية المكان هندسيا ودلاليا .

الشاعر يبحث عن مكان بديل ينظر له كأنموذج يحتذى به في رسم خارطة أبعاد المكان ، فلجأ لمدينة حلب محاولة منه إسقاط العناصر التركيبية للمكان الفلسطيني على نظيره السوري ، حيث حملها دلالات عميقة توجت هذه المقارنة بصورة بلاغية أحدثت حركة انتقالية للمكان .

كما وظف محمود درويش عناصر تركيبية لهندسة المدينة ، كالمدرسة ومعسكرات الجيوش ليحاول بذلك تعميم أطر المكان والاستحواذ على جل أنماطه الشكلية كما في قوله :

فِي العُمْرِ يَا ابْنِي ..... كَيْ أَطِيرَ إِلَيْكَ بَعْدَ المِدْرَسَةِ
لَمْ لَمْ تُحَاوِلْ تَرْبِيَتِي كَمَا رَبَيْتَ حَقْلَكَ سِمْسِمًا ، ذُرَةً ، وَحِنْطَةً .
أَ لِأَنَ فِيكَ مِنْ الحُرُوبِ تؤجِسُ الجُنْدِيَ مِنْ حَبَقِ البُيُوتِ (درويش ، 2005 ، ص 797)..

المدرسة في هذه الأبيات مكان مؤقت غير مرغوب فيه ، كون القضية الفلسطينية أعقد من أن تنحصر في حدود هذا النمط ، فالشاعر يريد تجاوز هذه المرحلة ، فهو يريد الطيران من هذه الحدود النظرية إلى الواقع الجوهري والمتمثل في ميدان الحروب ، و الشاعر يقارن بين تربية المدرسة وحركية الحروب ، حيث يدعو إلى النفور من واقع التعليم وتجاهله والانتصار للقضية التي لا تتأتى غاياتها إلا من خلال لغة السلاح .

المدرسة من أبرز مكونات المدينة من حيث التركيبة البنائية والعلاقة التكاملية من حيث الأثر النفعي ، غير أن محمود درويش جعلها من معوقات النضال والكفاح من أجل احتواء تركيبة المكان الجريح

، فالمعركة هي المكان المثالي الذي يحقق هده الغايات والأهداف المرجوة ، حيث لم يعد للمدرسة أدنى حاجة ، لقد ألغت كل مواطن التفاعل الذي دعا إليه الشاعر في العديد من المرات ، فانعكست تلك التجربة على المقارنة الصارمة والتي رجحت كفة المعركة على حساب المدرسة ، والتي جعل منها الشاعر ملمحا ، أثرا وشكلا هندسيا مشكلا لعناصر المدينة ليس إلا .

5 – البيت :

البيت في قصيدة محمود درويش وطن مصغر ، ومكان هادئ يوفر الأمان والاطمئنان هو الحلقة الأولى والأساس في حدود الأرض التي تبني من خلالها أركانه والمنطلق الجوهري لعلاقة الإنسان بهذه الحدود الهندسية ، إلا أن البيت سار وفق المخطط المتواتر في أبعاده الدلالية مع بقية أنماط المكان فاختزل التجربة الواقعية المريرة التي آل إليها المواطن الفلسطيني جراء نزيف أبرز الحدود الأصلية للمكان والتي تمحورت حول البيت :

رَبِ الأَيَائِلِ رَبُهَا فِي سَاحَةِ الدَارِ الكَبِيرَةِ يَا أَبِي
فَيَغُضَ عَنِي الطَرْفَ وَيُصْلِحَ غُصْنَ دَالِيَةٍ ، يُقَدِمُ لِلْحِصَانِ شَعِيرَة
وَالمِاءُ يَعْرِفُهُ عَلَى سَهْلٍ ، يُلاَطِفُهُ وَيَهْمِسُ يَا أَصِيلُ
يَتَنَاوَلُ النَعْنَاعَ مِنْ أُمِي ، يُدَخِنُ تَبْغَهُ ، وَيُحْصِي ثُرَيَات العِنَبِ (درويش ، 2005 ، ص 795)

البيت في هذه الأبيات أخذ منحى تصاعديا من حيث الحدود الهندسية ، حيث جعله محمود درويش يسبح في فضاء أوسع ، فالشاعر فتح مجالا أعمق لساحة الدار الكبيرة وغمدها بتلك العلاقة الأسرية الوطيدة ، حيث عبر عن الأحداث التي عكست دلالات البيت وما تعتريه من صور الألفة والمحبة ، حيث أخرج الشاعر هذا النمط من جو البؤس والشقاء الذي ألفته أغلب حدود المكان إلى جو الدفء والعاطفة .

الأبيات تلخص السلام الذي يعيشه الشاعر رفقة أهله حيث يقدم للحصان الشعير والماء ويلامسه و يداعبه ليصور أصالة الفرس العربي ، ليسقط هذا التماثل على الشخصية العربية ثم ينتقل محمود درويش لصورة الأب الجالس الذي يتناول الشاي من يد زوجته ويدخن التبغ ، ليرسم بذلك هدوءا نسبيا انفصل عن الواقع المرير الذي جزء المكان من أبز خصائصه الفنية .

البيت هو الحجرة النواة التي تكون شخصية الإنسان فهو المرجعية الأساس والمنطلق الثابت في تكوين الحياة الاجتماعية ، وهو صورة فنية لرصد الأحلام وينبوع الخيال وصورة متجذرة للماضي لذلك « حين نحلم بالبيت الذي ولدنا فيه وبينما نحن في أعماق الاسترخاء القصوى ننخرط في ذلك الدفء الأصلي ، في تلك المادة لفردوسنا المادي ، هذا هو المناخ الذي يعيش الإنسان المحمي في داخله » (باشلار ، 1984 ، ص 38) فيشعر بالطمأنينة وينعزل عن العالم الخارجي ويكسر قيوده ، ليبني عالما خاصا به بعيدا عن تلك القوانين والمراسيم التي تؤرق كاهله .

البيت لبنة أساس في بناء الوطن والأرض ، فهو مرجعية عميقة تعكس العلاقات القدسية بين أفراده ، حيث تتمازج العواطف ويسود الدفء والحنان لتنصهر الذات البشرية في هذه العناصر وتشكل كتلة واحدة أحادية ، تؤرخ لميلاد انتفاضة جديدة ، كما أن محمود درويش جعل من البيت أنموذجا يقتدى به في إبراز مكانة الأرض كهدف منشود ، وإعادة هيكلتها وفق التصوير الفني للبيوت :

أَ لِأَنَ فِيَك مِنَ الحُرُوبِ تُوحِسُ الجُنْدِيَ مِنْ حَبَقِ البُيُوتِ

كُنْ سَيِدِي ، يَا سَيِدِي لِأَفِرَ مِنْكَ إِلَى الرُعَاةِ عَلَى التِلَالِ

كُنْ سَيِدِي لِتُحِبَنِي أُمِي ..... وَيَنْسَى إِخْوَتِي مَوْزَ الهِلَالِ (درويش ، 2005 ، ص 796).

البيت المنطلق الجذري الذي يقصد ساحة المعركة ، إنه رمز للثبات والأصالة ، فالشاعر يجعل من البيت موطن الحبق ، الذي ترك أثر الروائح العطرة والاخضرار ، فهو جزء من تركيبة الشاعر حيث أجاد نسج صور الأسرة كطرف مؤسس للبيت فقوله : كن يا سيدي لتحبني أمي ، وبين أخوتي موز الهلال ، حيث أعطى محمود درويش أبعادا أخرى لتشكيل الوطن من خلال ممازجة عناصر البيت بالأرض ، فالأم هي الوطن فلسطين والأخوة هم المواطنون من أبناء جلدته ، وهذا ما رفع من وتيرة التصوير التي انتقلت من نمط بسيط إلى نمط أعمق يساير الواقع والتجربة في آن واحد .

6 – المنفى :

غالبا ما يلجأ محمود درويش لاختزال العقاب النفسي والجسدي الذي يعتريه جراء النفي خارج حدود الأراضي الفلسطينية ، وهذا ما نلمسه في قصيدة رب الأيائل ربها ، فالشاعر يجسد هذه التجربة المريرة وفق ثنائية الشروق والغروب في إشارة لمرارة المنفى :

لِأَسِيَرَ عَكْسَ الرِيْحِ ، عَكْسَ غُرُوبِنَا ..... مَنْفَايَ الأَرْضُ

أَرْضٌ مِنْ الشَهَوَاتِ كَنْعَانِيَةٌ ، تَرْعَى الأَيَائِلَ وَالوُعُولَ
أَرْضٌ مِنْ الكَلِمَات يَحْمِلُهَا اليَمَامُ إِلَى اليَمَامِ ، أَنْتَ مَنْفَى
مَنْفَى مِنْ غَزَوَاتٍ يَنْقُلُهَا الكَلَامُ إِلَى الكَلَامِ ،وَأَنْتِ أَرْضٌ (درويش ، 2005 ، ص 796)

الشاعر في هذه حالة يركب صور الصراع مع إثبات الذات وإعادة الهيبة للهوية الوطنية ، غير أن الشاعر عكس الريح لدليل على المشقة التي تعتري رسالته ، فهو عكس الغروب ، وهو ما تساوى مع المنفى من حيث التصوير الفني ، فمحمود درويش طابق الغروب بالمنفى فهو اتجاه ضدي وفق منهجه الخاص لقد ألهب الصراع المتجذر بين الأرض الأصل والثبات والوطن المؤقت في إشارة تتنافى مع العلاقات التفاعلية للوطن فلسطين.

لقد عزل محمود درويش عن أرضه الأم ، جعله يلازم الحدود المعزولة ويتعذب في المنفى ، ليلقى عذابا جسديا ونفسيا ، حيث لم يبق من الأرض سوى الكلمات التي نقلها الحمام كرسائل مؤنسة تخفف من آلام وطأة الأسر الضمني الذي طال الشاعر ، حيث يبقى الصراع قائما بين الإثبات والنفي في خضم هذا النفور من الواقع المرير ، والتي انعكست على اللغة الشعرية لمحمود درويش ، حيث أدى هذا الانفصال لعملية التكرار التي أدت لميلاد وقطيعة مع الأرض الفلسطينية ، حيث كسر الحاجز الذي كان يبلور مدى فاعلية الذات البشرية مع هذه الحدود الثنائية .

حاول محمود درويش بعث القضية الفلسطينية من جديد من خلال نقل التجربة الشعرية وحمل راية الدفاع عن حدود المكان ، «ولعل المشتغلين بالحقل المعرفي والفلسفي في الثقافة العربية يدركون الشقاء الذي سكن هذا الوعي ، ويقفون عند بعض ملامح الغربة التي تعبر عنها ولا يكف عن إنتاج شروطها واستمرارها ، بل أن هؤلاء المشتغلين بهذا الحقل وجدوا أنفسهم مرغمين على الانفصال عن تاريخ الفلسفة لينخرطوا في قضايا إشكالية تتداخل فيها الثقافة والسياسة بالحضارة ويتشابك فيها التاريخ بالايدولوجيا » (أفاية ، 1992 ، ص 15) ، فهذا الوعي السياسي الناتج عن الدفاع عن المكان باعتباره خاصية وطنية ألهبت ذات الشاعر المعاصر وغيرت نمط تفكيره من قضية شخصية إلى قضية قومية، غير أن هذا التقدير يصطدم بتقاعس وتخاذل كبير جراء الخوف من مواجهة الحقيقة المرة التي يقابلها عدالة زائفة في الفكر الغربي المعادي للعرب.

المنفى نمط مؤقت شكل حدود المكان المهزومة ، استخلص دور الشاعر في نضاله وانتفاضته حيث لجأت سلطات الكيان الصهيوني لقمع هذه الذات الفاعلة بعزلها وقطع جميع أواصر التجاذب بينها وبين الأرض الأم ، فالمنفى في هذه القصيدة تركيبة نفسية مهترئة الحدود ، ما جعل الشاعر يختزل التجربة المريرة ويسقى من مرارة العزل.

فهذا النمط جعله الشاعر وسيلة عقابية وبؤرة هلاك متطابقة مع الخصائص الشكلية لحدود السجن ، إلا أن المنفى انغمس في أبعاد العزلة والقطيعة لتتمخض المعاناة من رحم المكان المغتصب ، ليبقى محمود درويش أسير الكلام الذي جعله يعيد نسج حدود المكان من جديد وينقل مرارة العزل التي طالته وأرهقت كاهله ، حيث شلت تلك العلاقة بينه وبين الأرض وأضحت روحية ليس إلا .

يتجلى الدور الكبير الذي يلعبه المكان في إحداث التناغم والانصهار جراء الغموض في تحديد الدلالات والمفاهيم المبهمة التي تحملها الرموز والإشارات خاصة إذا كانت مشبعة من طبيعة المحاكاة لأنماط المكان ومحاولة المتلقي فك شفراته وتحديد الأطر والأبعاد التي يحملها النص ؛ « لأن علاقة القارئ بالنص هي علاقة مزدوجة من النص إلى القارئ ومن القارئ إلى النص وهنا يتأسس الحوار والتبادل وتتبلور تلك الجدلية اللانهائية التي تعمل على محورين الزمني والفضائي حيث لا يكون النص متوفرا بالضرورة على استراتيجية ينبغي للقارئ أن يستثمرها لفهم النص بل لبناء معناه المتعدد واستراتجيه النص هذه هي التي تنظم في الحقيقة المنظورات المتعددة الممكنة للنص ذاته ، وتأخذ على عاتقها المساهمة في بناء المعنى » (نجمي ، 2000 ، ص 70) الذي يحدده نمط المكان لكونه المادة الدسمة في محور هذه العملية التفاعلية، لذلك نجد أغلب الشعراء يرتكزون على أثر القيم الجمالية والفنية التي ينتجها المكان خاصة وأن الشعر العربي المعاصر أصبح يساير التطورات ويتماشى مع الثقافات الغربية .

يحتاج المتلقي لقراءة مابين الأسطر لفك شفرات المعاني والمفردات المبهمة لتولد العملية الشعرية وفق هذه الرؤى ، حيث «قد يبلغ الجمال والتأثر سلطة على السلوك البشري ذهنيا وحركيا ، عندما يلامسان الإقناع وتعديل وجهات النظر » (كموني ، 2011 ، ص 32) التي تستدرج المتلقي في متاهة القراءة وتحدد خصوصية أنماط المكان المبهمة .

المنظومة الشعرية لمحمود درويش « تتحرك وفق الكينونة والإحالة وهي تعني ماهية الشيء وإيماءات تعود إلى الموروث والاسترسال الديناميكي وهي قابلة للتماسك رغم الأشكال السياقي ومنظوره الاختياري

الشعري المرادف للتركيز الصوتي واللفظي » (مناف ، 2012 ، ص 93) ، الذي أثمر حركية فنية جمالية صاغها الشاعر وفق الحدود المتجزئة لعناصر المكان مما أدى إلى ميلاد أنماط جديدة .

وتتجلى شعرية هذه الأبيات في تعمق الشاعر لأنماط وحدود المكان المنعزل ، والذي لم يحد من إصراره لمواصلة الكفاح والانتفاضة ، وإنما كان بمثابة الدفعة والشحنة التي زادت من توطيد العلاقة بينه وبين الأرض، ففلسطين في قلب الشاعر أينما حل وارتحل ، إنها جزء حي في ماضيه حاضره ومستقبله ، فهي الهواء الذي يستنشقه خاصة وأن الشاعر أدرك تمام الإدراك أن قضيته وطنية ، مفاتيحها بين أيدي أهلها وهذا ما تجلى من خلال تقاعس العرب والمسلمين ورجح كفة الكيان الصهيوني الذي اكتسب أنصارا لإثبات الانتماء السياسي والجغرافي لجل المناطق الفلسطينية وتصنيفها ضمن الحقل الإسرائيلي الذي نسج خلاياه السرطانية على أبرز أنماطها.

. خاتمة:

خلاصة هذه الدراسة تتضح معالمها في النقط التالية :

- المكان في شعر محمود درويش عنصر رئيس في إحياء القضية الفلسطينية .
- عناصر المكان متعددة تعكس الحالة النفسية التي يعيشها الشاعر .
- الطبيعة على اختلاف طبوعها شكل من أشكال أنماط المكان .
- الأرض هي الوطن وهو ما يعكس اللغة الشعرية التي تعدت مضامينها البنية السطحية .
- البيت هو الوطن المصغر الذي يبني من خلاله الشاعر أبعاد القضية الفلسطينية .
- المنفى دفعة معنوية تجلت معالمها في جمالية أشعاره التي تنوعت بتنوع أنماط المكان .

المراجع :

1. حسين نجمي ، 2000 ، شعرية الفضاء ، المركز الثقافي العربي ، لبنان المغرب ، ط1 .
2. درويش محمود ، 2005 ، الأعمال الشعرية الكاملة ، أرى ما أريد ، رياض الريس للكتب والنشر ، بيروت ، ط1 .
3. سعد كموني ، 2011 ، إغواء التأويل واستدراج النص الشعري بالتحليل النحوي ، المركز الثقافي العربي ، الدار البيضاء ، المغرب ، ط1 .
4. عبد الرحمن ياغي ، 1998 ، القصيدة الملائكية والجواهرية والدرويشية والقبانية ، دار البشير ، عمان ، ط1.

5. علاء هاشم مناف ، 2012 ، التجربة الحسية في التأمل ، دراسات نقدية في شعر سعدي يوسف ومحمود درويش ، مؤسسة دار الصادق الثقافية ، الأردن ، ط1 ، 2012 .
6. غاستون باشلار ، 1984 ، جماليات المكان ، تر غالب هلسا ، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع ، بيروت لبنان ، ط2 .
7. قادة عقاق ، 2001 ، دلالة المدينة في الشعر المعاصر ، اتحاد كتاب العرب ، دمشق ، د ط.
8. محمد بوعزة ، 2010 ، تحليل النص الشعري تقنيات ومفاهيم . منشورات الاختلاف ، الجزائر ، ط1 .
9. محمد نور الدين أفاية ، العرب في المتخيل العربي ، منشورات دار الثقافة والإعلام ، الشارقة ، ط 1 ، 1992 ، ص 15 .
10. نور الدين صدوق ، 1994 ، عبد الله العروي وحداثة الرواية . قراءة في نصوص العروي الروائية . ، المركز الثقافي العربي ، بيروت ، ط 1 .